

"أين ذهبت كل الأخبار السارة؟"

فضلو خوري

الجامعة الأميركية في بيروت

خطاب احتفال التخرج أيلول 2021

في فترات الاضطراب أو التغيير التاريخي الكبير، يسود المفهوم أن الأخبار السيئة كثيراً ما تهيم على برامج الأخبار. ولا تختلف حقبات جائحة كوفيد-19 العالمية والانهباء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي العميق في لبنان. وحتى استخدام التكنولوجيا العلمية المهمة جنباً إلى جنب مع المهارة والموارد المتفوقة التي أدت إلى تطوير سريع للقاحات جديدة ضد هذا الفيروس الفتاك، والتوافر المتزايد للعديد من اللقاحات المعدلة وراثياً والفعالة للغاية، قد قوبلا بالكثير من الحنق والغضب. "المتميزون يحصلون على الكثير من اللقاحات!" علت الصرخة في الولايات المتحدة، وأوروبا، والعالم المتطور، وجنوب الكرة الأرضية، ونعم بالطبع في لبنان. (1)

ومع ذلك، فالواقع هو أن عدداً كبيراً من اللقاحات الجديدة والفعالة المنقذة لأرواح لا تعد ولا تحصى، باتت متوافرة. وهو أمر تم الاحتفال به بشكل أقل مما ينبغي. على العكس، للأسف. يُظهر التحليل الأخير لبرامج الأخبار (2) المتعلقة باللقاحات أنها تميل بشكل كبير نحو إعلان عدم توافرها، وتناول آثارها الجانبية المحتملة، والتفاوتات بين الدول الصناعية جداً التي تمكنت من الحصول على كميات كبيرة من هذه اللقاحات، ودول جنوب الكرة الأرضية حيث لا يزال اللقاح أصعب تيسراً، والموارد أكثر إجهاداً. وقد ظهر ذلك بوضوح في الربيع الماضي عندما غرقت الهند، أكبر مصنع للقاحات في العالم، في أكثر الموجات الفيروسية تدميراً منذ بداية الجائحة.

وبخلاف تغطية الأعمال البطولية لمقدمي العناية الصحية أثناء الطفرات الفيروسية المختلفة، ما الذي تم تداوله أيضاً في الأخبار مؤخراً؟ مواجهات مدمرة نجمت عن اختلالات ساحقة في القوة، الانسحاب الأميركي الفوضوي من أفغانستان، الزلازل، الكوارث الطبيعية، الماسي. قرأنا عن افتقار صارخ للمساواة في الحقوق الإنسانية والمدنية والحقوق المواطنة الأساسية. قرأنا عن غياب العدالة الاجتماعية وانعدام أفدح للتعاطف. القيادة الفظيعة التي لا يسبر منطقها توّدي إلى تفاقم العنف وانعدام الأمن لدى قطاعات واسعة من البشر. وفي هذا الجو اللاذع، والساحر، والعدائي، فهل من المستغرب أن تنهار الثقة في القيادة إلى أدنى مستوى لها منذ عدة عقود؟ أضف إلى ذلك توقّف العمل بسياسة التلقيح المستمر التي قامت أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية (3) ونرى أننا في عالم على حافة هاوية المواجهة، مغموراً في الخوف ومستعداً لتصديق أي خبر سيئ، وأن كل النوايا غير سليمة، سواء كانت الأخبار صحيحة وموثقة، أو ملفقة ومنشورة بشكل واسع على وسائل الاعلام الاجتماعية!

ربما لم يتم تعلم دروس التاريخ بشكل جيد كما يجب. ربما نحن نتوقع الكثير من قائدتنا البشريين جداً. أدرك أن هذا سيبدو غير سديد للكثيرين، ولديكم بالتأكيد الحق في أن تتوقعوا من قائدكم المنتخبين والمعنيين الوفاء بالتزاماتهم ليس فقط لوضع معايير أخلاقية رفيعة، ولكن أيضاً بالتزاماتهم تجاه الأشخاص الذين أقسموا على رعايتهم وحمايتهم، والمؤسسات والساتير ذاتها التي تعهدوا بالحفاظ عليها. يحب العالم أن يكون قائده نزيهين ومتواضعين وحكماء ونعم أنقياء. لسوء الحظ، إذ انظر المرء إلى ما وراء الأنبياء الرئيسيين لعبادة الإله الواحد، وبعض الأمثلة الأخرى المدهشة لرجال ونساء عظماء قادوا بفعالية وإنسانية وتواضع وحكمة، والذين يجتازون اختبار الشخصية بتفوق، لوجدنا أن هذه الأمثلة نادرة. السلوك الأخلاقي المستنكر، والطموح المفرط، وانعدام الثقة بالنفس الساحق، هي من عيوب الشخصية التي لا تمنع أصحابها من امتلاك تأثير تاريخي جم، حتى أنها قد تكون مكنتهم من القيام بما قاموا به.

خذوا على سبيل المثال أوتو فون بسمارك، رجل الدولة في القرن التاسع عشر وأول مستشار ألماني وموضوع سيرة المؤرخ البارز جونانان شتاينبرغ بعنوان بسمارك: حياة (4) كتابه كان علمياً، ومتحمساً، ومن أكثر الكتب مبيعاً. لقد كُتب الكثير عن حروب بسمارك، وتوحيده لألمانيا، وتطوير السياسة الواقعية، والتمكين المذهل للملكية المطلقة. بدلاً من ذلك، لم نسمع سوى القليل عن إقامة أول شبكة أمان اجتماعي تحت رعاية بسمارك، وهو تعهد انضم إليه الجد الأكبر لعضو مجلس أمنائنا، ألكسندر إركلينتز. وبفضل بسمارك، مُنح حق الاقتراع العام في ألمانيا قبل دول أوروبية أخرى بوقت طويل، وهي معركة لا تزال غير مكتملة في الولايات المتحدة، حيث تتعرض حقوق الناخبين مرة أخرى للخطر. كذلك في عهد بسمارك، تم تطوير الرايخستاغ (البرلمان) ليضم ممثلي مختلف الممالك والإمارات والدوقيات في ألمانيا (5). هذه جميعها كانت خطوات ضخمة لكنها لم تظهر في الزاوية التي تناول فيها شتاينبرغ رجالاً يعتبر معظم المؤرخين أنه قد يكون أعظم سياسي أوروبا وأكثرهم تأثيراً في القرن التاسع عشر، رغم عيوبه الظاهرة. ولكن أبطال كتاب شتاينبرغ ليسوا فقط المستشار الحديدي نفسه،

ولكن العديد من الشخصيات الغنية والمعقدة ونعم البشرية جداً والتي تتحرك في قصة بسمارك وتجعلها تحصل. وتجعل عالمه وفي النهاية عالماً، ما هو.

وهنا تكمن العديد من الدروس التي ندرکها بشكل غير منظم. الحياة يمكن أن تتوافق مع مراثية ماكيب المظلمة البائسة، عند علمه بانتحار زوجته، شريكته في المؤامرة والحياة "قصة مليئة بالصوت والغضب، يرويها أحرق، ولا تعني شيئاً". (6) وغالباً ما تكون الحياة نسيجاً غنياً من الألوان المختلفة، لبشر ينهضون ويسقطون، وأحياناً ينهضون مرة أخرى، لإحداث فرق حتى وهم يكافحون، ولكنهم بطريقة ما، يتغلبون على اختلافاتهم. تحكي لنا السير الذاتية لنساء ورجال عظماء قصصهم، ولكن هناك في الخلفية أبطال وأشرار ومساهمون ومنتقدون، متوارون إلى حد كبير عن الأنظار حتى يعدل المرء نظرتهم. إنهم المعالجون العظماء والباحثون والعلماء والكتاب والفنانون وعلماء المعرفة والفلاسفة والمهندسون والموسيقيون الذين هم خارج التركيز في قصص الأساطير، لكن كلماتهم وأفعالهم الحقيقية تحدث فرقا يومياً، يكون في كثير من الأحيان فرقا للأفضل.

إنهم أشخاص مثل الزوج والزوجة الألمانيين التركيبيين أو غور شاهين وأوزليم توريثشي، اللذين اخترعا معاً تقنية الحمض النووي الريبي المرسل، أو "إم آر إن آيه" التي ساعدتنا في تلقيح وإنقاذ العديد من الأفراد. (7) وبالطبع أشخاص في مجتمعنا في الجامعة الأميركية في بيروت، وعددهم كبير جداً بحيث لا يُنصفون هنا، ومن بينهم خريجتنا، بشارة شقير، (8) الذي يقود حملة التلقيح الوطنية الأميركية الرائعة للرئيس بايدن، والذي يخطط لشحن أكثر من ثلاثمئة مليون لقاح إلى الشعوب في جميع أنحاء جنوب الكرة الأرضية. وأقرب إلينا جغرافياً نهاد ضومط، وغلاديس حنين، وإيمان نويهض، ونجاة صليبا، ولينا داعوق-أويري، وآلان عون، وريما كرامي، وشارلوت كرم، وكارمن جحا، وآخرون، أبطال ساعدوا في إحضار "خضة بيروت" وخدماتها الملهمة والمؤكدة للحياة إلى منطقة الكرنيتين المنكوبة في بيروت (9). هناك أيضاً كارين صقر، وندى ملحم، وماركو باردوس، وسهى كنج شرارة من لجنة خبراء كوفيد-19 لدينا وهم من بين الأبطال الذين أعطوا الأولوية بلا كلل لسلامة مجتمعنا قبل أي شيء آخر. وماذا عن وكيل الشؤون الأكاديمية زاهر ضاوي ونائب الوكيل للشؤون الأكاديمية لينا شويري، ومدير مكتب التسجيل براد تاكر، وعمداؤكم الذين يعملون بلا كلل لمساعدتكم على إنهاء هذه السنوات الصعبة وبذل كل ما في وسعهم لضمان وجود فصل دراسي في الخريف نتطلع إليه؟ أو جان عبد النور، المدير المشرف على دائرة صيانة الأملاك والمنشآت، ونائب الرئيس للشؤون الإدارية ماري جابر النشار، ومدير المركز الطبي في الجامعة الأميركية في بيروت جوزيف عتيق وفرقهم الرائعة العاملة على مدار الساعة لضمان تزويد المستشفى بوقود الديزل والطاقة للحفاظ على تزويد الأطباء المنقذين للحياة بالمعدات والأدوية ونعم، امدادات الطاقة؟ ولا تنسوا علي أبو ألفا وفؤاد زيادة، وهما مثالان يحتذى بهما ويديران برنامج حماية البحوث البشرية (10) مما يمكن أعداداً من أعضاء هيئة التعليم في الجامعة الأميركية في بيروت من إجراء تحقيقات مغيرة للممارسات، وكل ذلك أثناء نشر الأبحاث العلاجية وتوجيه الأطباء والمرضى الشباب وإنقاذ حياة مرضى الفشل الكلوي الحاد. شخص واحد ومريض واحد في كل مرة. أخيراً، دعونا لا ننسى أيضاً أعضاء هيئة التعليم والموظفين الذين لا يقل دعمهم وتوجيههم ولطفهم لطلابنا ومجتمعنا عن كونه بطولياً، بما في ذلك الفريق المذهل من المتطوعين الذين عملوا لأشهر لضمان حصولكم أنتم وطلاب العام 2020 على حد سواء، مع والديكم الرائعين، الأبطال بحد ذاتهم، على امكانية حضور ومشاركة حفل تخرجكم المميز جداً من الجامعة الأميركية في بيروت.

فكروا في أمثلة هؤلاء الأفراد الذين يجهدون ببطولة في بلد يئنّ يأساً من نقص ريادة أو مسؤولية أو حتى إنسانية قادته. الكثير من هؤلاء الأشخاص الذين أدرجتهم وشكرتهم فردياً أو جماعياً هم من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت مثلكم. فكروا فيما يمكنكم تحقيقه لصالح الآخرين في هذه الظروف الأليمة، بينما من الأسهل عليهم أن يشيحوا بنظرهم بعيداً. أو حتى ان يبتعدوا ويتوجهوا إلى مكان آخر حيث الأمور أسهل وأرسخ بقيناً. فكروا في هذه البطولة التي نادراً ما تظهر في الأخبار وعندها ستبدأون في ادراك أنكم قادرين على أي شيء. أنتم طلاب الجامعة الأميركية في بيروت. أنتم سادة مصيركم. أنتم أيضاً تلعبون دوراً إيجابياً في مجتمعات تحتاج بشدة إلى نماذج يُحتذى بها.

في المرة القادمة التي تشعرون فيها باليأس أثناء قراءة الأخبار، مُثقلين بما يعتمد منها الإثارة الرخيصة بدلاً من العقلانية، فكروا جيداً في ما يمكنكم فعله لجلب الأخبار السارة إلى العالم. في العام 1968 مستشهداً بالكتاب المسرحي العريق جورج برنارد شو، (11) تحدث المرشح الرئاسي روبرت كينيدي إلى أمة كانت في اضطراب خلال حرب فيتنام وقال، "يرى البعض الأمور كما هي ويسألون لماذا. أنا أرى أشياء لم تكن موجودة أبداً وأسأل لماذا". (12) أمل أن تحتسبوا أنفسكم جميعاً من بين القلائل المميزين الذين لا يكتفون بمجرد التحسّر على الوضع الحالي، بل يهدفون - ويجاهدون لتحقيق - ما يمكن أن يكون.

بإصراركم على قولبة وخدمة عالم أفضل وأعدل وأكثر اشتمالية وفيه المزيد من الأمل، تجيبون على السؤال أين ذهبت الأخبار السارة لأنكم أنتم خريجو الجامعة الأميركية في بيروت للعام 2021 أنتم أخبارنا السارة، وهي أخبار سارة بعالم أفضل.

مراجع

- 1- رئيس منظمة الصحة العالمية ينتقد الانقسام العالمي "الصادم" حول اللقاح، بي بي سي، 10 نيسان 2021  
<https://www.bbc.com/news/world-56698854>
- 2- بروس ساكردوت، رنجان سهغال، مولي كوك، لماذا كل أخبار كوفيد-19 سيئة؟ المكتب الوطني للأبحاث الاقتصادية، 22 آذار 2021  
<https://www.nber.org/papers/w28110>
- 3- كيف حفزت الحرب العالمية الثانية والجيش الأميركي تجديد التلقيح، بزنس انسايدير، شباط 2018  
<https://www.businessinsider.com/how-world-war-ii-and-the-us-army-spurred-vaccine-innovation-2018-2>
- 4- جوناثان شتاينبرغ، "بسمارك، حياة"، منشورات جامعة أوكسفورد، 2011
- 5- هنري كيسينجر، "أوتو فون بسمارك، رجل الدولة الفذ"، مراجعة الكتب في عدد الأحد 31 آذار 2011 (مراجعة لكتاب شتاينبرغ "بسمارك: حياة").
- 6- مأساة مكبث، وليام شيكسبير، 1606.
- 7- الصفحة الإلكترونية لرئاسة بيونتك  
<https://biontech.de/our-dna/leadership>
- 8- رحلة خريج الجامعة الأميركية في بيروت الدكتور بشارة شقير إلى إحدى أصعب وظائف واشنطن، مكتب الاعلام في الجامعة الأميركية في بيروت، 23 شباط 2021  
<https://www.aub.edu.lb/articles/Pages/Bechara-Choucair-US-COVID-19-vaccine-coordinator.aspx>
- 9- أفراد خضّة بيروت  
<https://khadditbeirut.com/people/>
- 10- برنامج حماية الأبحاث البشرية ومجلس المراجعة المؤسسي  
<https://www.aub.edu.lb/irb/Pages/default.aspx>
- 11- جورج برنارد شو، العودة الى متوشالح: كتاب ديني ميتابولوجي. لندن 1921، الناشر كونستبل وشركاه
- 12- روبرت كينيدي، خطاب في جامعة كانساس، 18 آذار 1968  
<https://www.ifklibrary.org/learn/about-ifk/the-kennedy-family/robert-f-kennedy/robert-f-kennedy-speeches/remarks-at-the-university-of-kansas-march-18-1968>